ابناء الفقر

اكثر تأثيراً في ترقية المرئة او مخاصمة من ابناء الغني

خطاب السيدة سافي حرام الدكتور فريد كساب في حفلة جمعية شمس البر

وقوف النساء على المنابر — ايها السيدات والسادة — امرٌ يصادف عند فريق منكم استهجاناً وعند آخر استحساناً . فلفئة الاولى اقول ان علماء الاجتماع يستنتجون تقدم امة من ملاحظة سير الحرية الحقيقية حرية القول والعمل بين افرادها رجالاً كانوا ام نساء . فاذا صح ان خطوة واحدة من الرجل — ولا فرق ان كانت هذه الخطوة الى الامام ام الى الوراء — تتلوها خطوة اخرى من المرأة ثبت لدينا ان المرأة السورية تابعة للرجل السوري في كل شيء في الصعود وفي الهبوط وبالتالي تابعة له في العلوم التي لم ينل منها واسفاه الا العلوم الكلامية . فعليه لا لوم علينا ولا على فريق يرى رأينا اذا قصدنا نفع الشعب من وراء تهجير المقالات التهذيبية والقاء المباحثات الاجتماعية اذ لم يتيسر لنا ان نخدم هذه البلاد المحبوبة بالعلم الحقيقي فكلٌ يجود بما عنده والله من وراء النيات

ثم اعود فاسأل افراد الفئة الثانية عن النتيجة التي اتت بها اشعارهم ومباحثاتنا حتى الان . هل ازالت منا جهلاً ضرب به المثل . هل علمت التركي المجاور للغرب كيف يستفيد من ابناء الغرب . ام هل لفتت العربي المتوسد الرمال ان ينزل قليلاً من غيوم الخيال الى ارض الحقيقة وان يهتم بدرس الميكروبات بدل التهائه بحفظ اسماء النافة . اخبرونا ماذا فعلت خطبكم حتى الان . هل انتزعت جذور الفساد من بعض النفوس . هل استأصلت الاقذار من الاسواق ومن المحاكم ام هل منعتنا من السير نحو التيار العظيم . ذلك التيار الذي سيقذف بنا وبكم الى قاع الدمار فيجعلنا عبرة لابناء الامم الحاضرة وموعظة يتعظ بها ابناء الاجيال المقبلة

كلٌ من الكتاب يرمي على قوله الى محاربة الاستبداد وكسر قيود التقاليد وحث الشعب على طلب العلم ومزاولة العمل . كلٌ يدعي انه ينفخ بين ابناء هذه الامة روح المدنية الحقة يسكب دماء قلبه ليبعث همهم ويدفع بهم الى حياة جديدة حياة عمل . حياة استقلال اذاً مناهضة القوة الغاشمة ونبذ الاوهام والتخيلات ومزاولة العمل مع طلب العلم تكفل للمجتمع الرقي الذي يرغبه كتابنا وكلنا على رأي كتابنا . فاذا سلمنا ان هذه العوامل واشباهها هي وحدها الفعالة في انجاح المجتمع الانساني قدرنا ان نفتش بين طبقات الشعب عن موجدي

هذه العوامل حتى اذاء رأينا انهم ابناء الفقر لا ابناء الغنى جاز لنا ان نلتمس من هولا المجيدين ان ينفخوا هذه الروح بين ابناء الشعب . ابناء الفقر . لان بقوة ابناء الشعب نهضت الشعوب وبتألم ابناء الفقر ستنهض تركيا .

نعلمون ايها السادة ان لا هيبة لنا تمنع عنا اعتداء الطامعين بارضنا . ونعلمون ان طمع اوربا جعلها بنا لا يقل عن طمع ايطاليا مثلاً وانها لولا التهاؤها ببعض قطرات اخيرة باقية في عروقنا لسمعت لغير ايطاليا — منذ زمان — بلغمة لا تقل اهمية وكبراً عن طرابلس الغرب . فمن وراء كل هذه الحقائق نرى انه لم يزل في سوريا قليل من الثروة فهل تريدون ان تتساءل من هو موجد هذه الثروة؟ أهو ذلك المتمول الذي يقضي شتاءه في مصر وصيفه في باريز؟ام هو ذلك الشريف الذي لمس الحرير بيديه بناءه

اهو ذلك الشاب الذي يتلقى دروسه في اوربا ثم يضع الديبلوما في جيبه وينتقل من مجتمع الى مجتمع ومن مسرح الى مسرح . ام هو ذلك التاجر الذي يقتل معنويات البلاد ليروج بضائع اوربا . ام هي تلك النسيلة التي لكل نوع من الهواء يلزم لجسمها النحيف رداء ؟

هولاء لا يقدرون في انجاح تركيا ايها السادة . هولاء ياخذون الاموال الى اوربا ولا يصدرون من سوريا شيئاً . الذي يحفظ حالة تركيا الاقتصادية هو ذلك الشاب النشيط الذي يحرث الارض لتأتي بالسمسم والقمح والشعير وسائر الحبوب . هو ذلك الفلاح الذي يربي دودة الحرير ليحصل محصوله في سوريا المحصول الخامس بين محصولات الحرير في العالم . هو ذلك الفتى المتين . الجسم المجدول العضل الذي يهاجر الى اميركا فيشتغل الحر والقر ويرسل المال تباعاً الى لبنان ومستودع ثروة لبنان بيروت واخيراً هي تلك الفرونة التي تحيي ليلها ونهارها بشغل الايرلاند الذي بلغ ما صدر منه السنة الماضية زهاء المئتين وخمسين الف ليرة .

هذه هي حالة تركيا الاقتصادية وحافظوها كما رايتم هم ابناء الفقر لا ابناء الوظائف والغنى

واما حالة تركيا السياسية . تلك الحالة التي تئن منها انسانية اليوم فلن تتغير الا يوم تستغني اوروبا عن قمحنا وشعيرنا وحريرنا .

في ذلك اليوم يفتح ابن الفقر عينيه فيرى مورد الرزق قد سدّ في وجهه ثم يشعر بالتزاحم في الحياة ويرى ان القوى تتطاحن تزاحماً على الاثرة . اذ ذاك يبدأ ان يحس بالضغط والجوع . اذ ذاك تدنو الساعة التي بها يقطع القيود . واذ ذاك تتمطى ثم تتثاءب ثم تفيق تركيا وطالما من ساعة يوم يوقظ ابن الفقر تركيا .

ولكن السوري لم يشعر بعد بالفاقة والجوع . لان الشفقة والحمد لله لم تزل تحرك قلوب اصحابنا ابناء الغنى وارباب البيوت المالية الذين يسلون الفلاح المبالغ القليلة من الدراهم ولكن لتعود اليهم مضاعفة وملوثة بعرق جبين ابن الشعب ودماء قلبه

هذه قصة محزنة جرتني الكلام عنها الى البحث عن اسباب انقراض دولتين عظيمتين درست اثارهما درساً وعن دواعي تقدم امتين عظيمتين هما الان في طليعة الامم المتمدنة . فهذه دولة الرومانيين خفقت رايتها فوق البحار وحكم بنوها المدن والامصار كم تدفقت ميازيب الذهب في رومه وكم بدد بنو اشرافها ذلك الذهب انواعاً على موائد الكبر ودور الخلاعة . ليس من ينكر ان ابناء الغنى هم الذين اودوا بمجد رومه بما استولى عليهم من الكسل والجمود وبما استغرق في نفوسهم من الكبرياء التي جعلتهم لن يعيشوا تلك المعيشة الحيوانية المقتصرة على اكل ولهو ونوم تلك المعيشة التي لا يفقه لها معنى ابن الفقر وربيب الشقاء وايضاً لولا عيشة الرخاء هذه التي اوجدها غنى العباسيين لما وقفنا فوق اطلال بغداد ندندب مجد العرب الفاني وعزم الدارس . هذا ما هدمه بنو الغنى واليكم ما شيده بنو الفقر :

في ليلة من ليالي تموز كانت باريس عاصمة الفرنسويين تموج بنيها ابناء الشعب الذين ملأت نفوسهم الخضوع طويلاً لابناء الغنى فتجمهروا وهدموا الباستيل وانزلوا الملك عن عرشه ثم نادوا بسلطة الشعب وابدوا الجمهورية التي اعادت لفرنسا سالف مجدها بعد ان كادت تخسره يوم جعلت نصف بنيها حراساً لقلوك ونصف بناتها وصيفات في بيوت الامراء . ومن تاريخ ذلك اليوم خط ابن الشعب بالحرف من نور كلمة ثورة في قاموس الامم فكانت كشعم اضاء العالم باسره وسار على نوره كثيرون من ابناء الشعوب المستعبدة وما عهدنا بالصينيين ذوي النوابة بالبعيد

اجل من تاريخ ذلك عاق ابن الشعب رايته كيف التقمة فوق رؤوس الحكام . واصبح صوته كقصف الرعود او كزئير الاسد بين الاكام . وصوت الشعب من صوت الله

اما ما خطه ابن الشعب الانكليزي الى جانب عبارة جاره الافرنسي فهي صرخة كرمويل يوم عزم على طرد النواب غير الامناء . اذ وقف في وسط المجلس وصرخ في اذانهم أأنتم النواب عن هذه الامة . انتم لا تليقون للنيابة قاتت شغلك الشخين واثت وأبيك الكبر واثت لا يهمك الا اتيان الامور المنكرة فاخرجوا كلكم من هنا واتركوا هذه المقاعد لمن يستحقها اكثر منكم . ثم انه طردهم واحداً واحداً واقفل الابواب ووضع مفاتيحها

في جيبه . وهذا العمل أيد نبوته التي فاه بها عندما تسلط على الملك اذ قال على مسمع من كثيرين : اما وقد صار الملك في يدي فالجلس في جيبي

اذاً هذا ابن الفقر يقلب العروش و يحطم التيجان ليصلح احوال العالم سياسياً كما يظهر من مثال الانكليز خلفاء كرمويل ان ابن الشعب هو خير مثال لترقية المجتمع مادياً وعملياً

تقوم عظمة انكلترا اليوم بكثرة المتاجر والعامل وامتداد التجارة ومتابعة الاستعمار . فاي منجم في العالم يمكننا ان نستخرج منه افة لحم بدون يد العامل الفقير . اي متجر ولو كان صاحبه قارون تنتظم اعماله قبل ان تقطر جباه مستخدميه ابناء الشعب دماً وماء . لست اريد ان اقول هنا ان ابناء الشعب يخدمون مصالح التجار فقط بل ما اريد ان ادعمه بالبرهان هو ان الفاقة هي نفسها بايوع غنى لارباب الثروة واذا سألتموني كيف كان ذلك اسألكم ما هو الغنى ؟ هل هو ذهب ؟ اذا كان ذهباً فالعامل هو الذي يستخرجه من الارض و يكدسه في الصناديق ليسلمه غنيمة باردة الى المتمول — هل هو بضائع ومحصولات ومصنوعات ؟ اذا كان الامر كذلك فالعامل هو الذي يوجد كل هذه الاشياء بعمل يديه ام لعله اسهم وقد اصبح من المعلوم ان الاسهم اليوم في يد العمال الذين يحطمون باعتصابهم رأس المال واحياناً رأس المتمول . فعليه نرى ان الثروة موجودة بفضل العامل الذي يفني حياته بالعمل القائم ليملأ صناديق ارباب الاموال والمحتكرين فكأن تلك العبارة التي جاء بها يسوع في بعض امثاله كتبت لتتم به : من له يعطى ويزاد ومن ليس له يوخذ منه

ليكدس المتمول امواله في خزائنه علها تثبت له خيراً يوم يخطر بباله الخباز ان لايقف امام النار وليخبيء اسهمه طي فؤاده علها تقيه شر ثورة عصبية يوم يضرب المعدنون عن العمل

منذ شهرين — والعهد قريب — حملت الاسلاك البرقية نبأ هلعت له القلوب واستنتج منه ان تجارة انكلترا — او بالحري تجارة العالم اجمع — في خطر

فالتجار منكم . واكثركم اصحاب مصالح تجارية تألموا فعلاً وشعروا نوعاً بالهزة التي حدثت في انكلترا واما الصحافيون واصحاب الحرف الادبية فتفرجوا من بعيد على مشهد لم يهمهم شيء من النفع . ولكن على فرض ان الاعتصاب دام وقتاً اطول الى حد لم يعد من سبيل معه لنقل البريد والتفاصيل . او على فرض ان داء الاعتصاب سرى الى كل عمال التلغراف في العالم فماذا كان يحدث عندئذ ؟ كان يحدث ان القراء يملون من قراءة عبارات التنديد بالبربرية وكان يحدث ايضاً اني اتمكن من اقناع الحزب المعارض بكل

سهولة وبدون تعب فاستغني من الفاء هذه المباحثة التي لا يعود لها لزوم

لنعد الان الى بحثنا في سر تقدم الانكليز اذهبوا الى كندا او الهند او زيلندا او السودان ترون الانكليزي يستخرج الذهب يربي الماشية ويجفف المستنقعات ليصير الارض التي يدخلها جنة . فتعلمون اذ ذاك ان رجالاً غير ابناء اللوردة وربي القصور يقومون بهذه الاشغال الشاقة وان نساء غير ملكات الاعياد وسيلات الاجياد يرافقن الانكليزي في مارض الغربة ويسهلن له المعيشة المنزلية ليتمكن من القيام بالاعمال العظيمة التي منعت الشمس من ان تغيب عن املاك انكلترا

ايها السادة . يعلم الذين رأوا الذهب سائلاً ان من طبيعة هذا المعدن ان يتجمع ويتجمع متى صبت عليه النار الى ان يصير كتلة واحدة ويظهر ان هذا المعدن المحبوب من كثيرين يحفظ لنفسه هذه المزية بعد ان يتجمد ويتحوّل الى نقود وبالتالي متى صبت عليه نيران الاحتكار المحرقة

ولهذا السبب عينه نرى ان عدد المتمولين الكبار يقل من سنة الى سنة وهذا مما يقود المال الى البقاء في يد افراد قلائل . فعليه تصوروا هذه القوة الصفراء الضخمة التي لا تقوى الا بالانضمام والتي من طبيعتها الانضمام وتصوروا من جهة ثانية تلك القوة الصغيرة الكبيرة المؤلفة من العمال الذين لا يعيشون الا متى كانوا كثار العدد تقدرون كم يتاصل ابناء الفقر في منع هؤلاء الافراد عن الحاق الاذى بهذا المجموع الذي يمثل الانسانية والذي يجاهد لحفظ كيان المدنية ولتأييد عظمة اوروبا التي تقوم بالعمل وايدي العملة لا بالمال وذوي الاموال /

اجل ان قوة اوربا اليوم التي لا يجري فيها نيل مصر ولا تشرق عليها شمس سوريا تقوم بعمل الايدي لا بخصب التربة وعمل الايدي هذا هو الذي جعل مصنوعات الغرب ان تضيق الخناق على مصنوعات الشرق وحمل عمال اوربا على تقليد بضائع دمشق مثلاً ليشحنوها الى بلادنا ويبيعوها منا بابخس الاثمان

فازاء هذين العاملين المتنازعين لقوى ابن الشعب وهما عامل الخوف من اصحاب الاموال وعامل الرغبة بابقاء رايته خافقة فوق البحار لا يسع المتأمل الا ان يطأطىء رأسه امام هذه القوة العظيمة التي تحارب الاحتكار واضراره وتصد عن الانسانية هجمات المتمولين مؤيدة اوربا وعظمة اوربا بما تمكنها من الفوز على العالم اجمع سياسياً ومادياً وعملياً

واما علمياً فتعالوا نفتش بين جماجم علماء الامس وفي جيوب علماء اليوم فلا نرى اثراً

لابناء الغنى . ويخطر في بالي ان اسرد اسماء كل العلماء الذين سمعت بهم او قرأت عنهم بدون ان افتح كتب التاريخ لان معظم العلماء ابناء فقر ونصفهم ان لم اقل اكثر ابناء فقر مدقع . وهذا لا يحتاج الى فلسفة ولكنني اكتفي بذكر افراد قلائل خوفاً من الملل

هاكم كولمبوس مكتشف قارة اميركا وفاتح باب المهاجرة لاكثر من اربع مئة الف سوري ينعشون سوريا بالاشغال الارتيدية الصادرات والحوالات المالية الواردات . وجيمس واط مخترع اول آلة بخارية ومحيلي اب العلماء واول من برهن على دوران الارض . وورتجوع مكتشف آلة الطباعة وتور يسلي موجد ميزان الزئبق وكلود شاب مخترع التلغراف الهوائي . وفرنكلين الذي تقينا حربنه الكهربائية شر الصواعق ورتوله وباستور ومار كوني وكوري . فلو كانت امهة ابناء الغنى قابلة للعلم لسافرنا منذ ازمان الى بغداد في المناطيد . ولكن العلم كان منذ القدم نصيب ابناء الفقر . والفاقة تستلزم العلماء الى الابد . وهذه حالة طبيعية محضة . فالغني المشرف على العالم من خلال نظارته الذهبية الحاصل على كل شهواته ورغائبه لا يمكن لنفسه الجامدة ان تتطلب مجداً آخر او تسعى لنيل كرامة . بخلاف الفقير المعدم الذي له من فاقته اكبر دافع لاقتحام المصاعب . فتراه ينصب على الدرس ويواظب على التنقيب الى ان يذهب العلم من نفسه واذ ذاك ينسى انه بدأ ليتوصل الى تحصيل القوت فيصير يهتم بالعلم لاجل العلم . وهذا هو الرقي هذا هو الصعود هذه هي النفوس السامية التي تذيب نفسها لتحيي سواها

وهنالك قوة تسمى القوة الادبية وهي بمعزل عن السياسيات والمذاهب والعلميات ودعاتها هم الانبياء والشعراء والموسيقيون والمصورون الذين عاشوا في الصحراء والكهوف والاكواخ الحقيرة . فكم من فضائل اضاءت كالنجوم في البراري والقفار . كم من نفوس تألقت كالآلي بين صخور الكهوف . كم من نغم ليتوفن وشوبر يقطع منا القلوب ويستنزف الدموع وكم من صرخة صرخها لامارتين وملتون وابو العلاء فكان لصداها هدير اهتز له العالم بأسره . من ساعد النصرانية على الانتشار . هل هم الملك الذين لا يدخلون الملكوت قبل ان يمر الجمل من ثقب الابرة . اين يوجد الصبر والقناعة والدعة وقوة الاحتمال ؟ اين نرى السذاجة والتواضع والنشاط ؟ من اين ينبعث الايمان و يسطع الرجاء وتسود المحبة ؟ اين نرى كل هذه الفضائل والكمالات أفي مكاتب المحتكرين ام في دور المتوانين ؟ أفي قاعات القصور ام في زوايا الحذور ؟ لا من هنا ولا من هناك ينبعث هذه الفضائل . فالجوع وحده وآلامها والجوع سيبقى محركاً لها الى الابد

نظر موسى الى شعب اسرائيل الفقير يئن تحت اسواط المصريين الاقوياء فتحركت في قلبه عوامل الشفقة وخرج بهم من ارض مصر ليشرع لهم تلك الشريعة التي تحمي ضعيفهم من قويهم والتي كانت الحجر الاساسي في تاريخ الاديان

ونظر بودا الى الحفاة والعراة يسيرون بلا مأوى في الشوارع فتردى بلباس النساك وانزوى في البرية ليسن لشعبه مبادىء العدل والفضيلة

واما نبي الاسلام فاضعف فعلاً قوة المتمولين في امته اذ فرض عليهم فريضة الزكاة وهو يرمي بذلك الى توزيع المال على المجموع فلا ينحصر بافراد دون آخرين

ولو رجع يسوع وزار الارض ثانية لنظر الى وحوش المال في اميركا واكمل عبارته الجبلية قائلاً : رويدكم ايها المهتمون بالغد . رويدكم ايها المحتكرون رويدكم ايها الواهبون العامل جزءًا من المليون من اتعابه فيا ما احيلى تلك الايام . ايام كان الظالمون يستوفون العشر ويتركون التسعة اعشار . لا تعجلوا بابتلاع بعضكم بعضاً بل اعملوا طريقاً للشغلين في جوف الارض . افسحوا مجالاً للذين ان لم يعرفوا اليوم دماً يموتون غداً جوعاً

هذه هي المذاهب التي بنيت على غير اساسانها مدنية اليوم والتي تمود اليوم فتثير اً من بينها . هذه هي المبادىء التي ساس خيالها العالم وكلها تربي الى سحق الظالمين بنفوذهم المحقوت . كلها انتشرت بفضل الفقراء الذين حاموا حول من رفع لهم صوتاً ودفع عنهم ظلم الظالمين . وكل الانبياء . كل من نشر مبدأ . كل من اسس مذهباً ابن فقر وفاقة . فموسى رمت به امه الى الامواج اذ لم يكن لديها ما يقوم بنفقة سفرها لتحميه . وصاحب الشريعة الاسلامية لم يكن من الامراء . ويسوع فتح عينيه للنور في مغارة . والنور والحق انبثقا من مزود البقر

بنات الفقر

مثلما حدم ابناء الفقر الهيئة الاجتماعية خدمتها بناته وكما استفادت الانسانية منهم قد انتفعت منهن لان تأثير الفقر تساوى في الجنسين وتوازت اسبابه وظروفه على الرجال مثلها على النساء . والتاريخ شاهد عدل على كثرة النابغات من تحت سقوف الاكواخ العظيمات المولودات في مهاد الفقر نذكر منهن اثنتين الآن نور جهان ملكة الفرس التي اصلحت بلادها اصلاحاً عجيباً ومنعت المخدود من دفن الارامل حيات مع ازواجهن وكاترين الاولى قيصرة الروس التي انقذت روسيا من اشد المخاطر وعاونت بطرس الاكبر على الاصلاح